

تحولات ما بعد طوفان الأقصى

د. محمد السعيد إدريس

تقديم

لم يكن يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ يوماً عادياً في تاريخ مجرى الصراع العربي- الإسرائيلي. ففي هذا اليوم انطلقت قوى المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة مفجرة طوفانها نحو العدو الإسرائيلي لتكتسح عن طريقها ليس فقط مراكز عسكرية واستخباراتية لكيان العدو وتدمر معها ما أسماه بـ «غلاف غزة» وهو سياج من المستوطنات العسكرية التي أسست لتكون عازلاً بين القطاع وبين كيان الاحتلال الإسرائيلي، وتسقط مع هذا كله «نظرية الأمن الإسرائيلي» وتعلن أن واقعاً جديداً يجب أن يؤسس ويفرض نفسه بين الشعب الفلسطيني والمحتل الإسرائيلي على طريق استعادة الحقوق.

طوفان الأقصى وما أعقبه من حرب إبادة جماعية إسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني الذي صمد صموداً أسطورياً ليس له نظير في التاريخ، لن تكون تداعياته محكومة فقط بمسارات الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي ولكنها ستفرض تداعياتها عربياً ودولياً.

فالنجاح المبهر لهجوم «طوفان الأقصى»، والصمود الأسطوري للشعب الفلسطيني في قطاع غزة أمام واحدة من أشد وأسوأ، بل وأبشع الحروب في التاريخ استهدفت إبادة الشعب الفلسطيني وليس مجرد هزيمة حركة «حماس» أو الانتقام للهزيمة العسكرية والانكسار المعنوي وتهاوي المكانة، يشكلان معاً معول هدم كثير من الثوابت ومن أبرزها المنظومة الإقليمية

الشرق أوسطية والمكانة المركزية لكيان الاحتلال في هذه المنظومة، والدور الأمريكي المحوري في إدارة والتحكم في التفاعلات التي كان يشهدها ما يمكن اعتباره نظاماً إقليمياً شرق أوسطياً خضع منذ الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف عام ٢٠٠٦ لضوابط ومعالم صاغتها وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس أعطتها اسم «الشرق الأوسط الجديد»، وجاء «شرق أوسط نتياهو الجديد» الذي لوح بخريطته من موقعه على منبر الأمم المتحدة ليني على مرتكزات ذلك المشروع بما يحقق الطموحات الإسرائيلية في الهيمنة والسيطرة الإقليمية والتخلص النهائي من عبء القضية الفلسطينية .

شرق أوسط كوندوليزا رايس الذي حمل اسم «الجديد» أيضاً كان يستهدف الانحراف بمجرى الصراع العربي- الإسرائيلي، وفرض خيار «التطبيع الدافئ» على الدول العربية مع كيان الاحتلال. فعندما أعلنت «كوندوليزا رايس» مشروعها كانت تريد أن يتحول الصراع العربي- الإسرائيلي إلى صراع عربي - إيراني، وأن تصبح إيران هي «العدو المركزي» في الإقليم وأن تتحول إسرائيل إلى ركيزة للسلام والاستقرار وأن تتعامل معها الدول العربية وفق هذا التصور.

وانطلاقاً من هذا المشروع بدأ بنيامين نتياهو ، رئيس حكومة كيان الاحتلال لسنوات طويلة مضت في استثمار هذا الشرق أوسط الجديد، عبر السعي لفرض منظومة من المفاهيم على الإقليم.

- أول هذه المفاهيم أن إسرائيل هي القوة الإقليمية العظمى، القادرة على التحكم في ملف الأمن الإقليمي، والتصدي للعدو الاستراتيجي الجديد في الإقليم وهو «إيران» ، التي باتت متهمة أمريكياً وإسرائيلياً بمشاركة أطراف عربية أنها «دولة إرهابية»، أو على الأقل «راعية للإرهاب».

- ثاني هذه المفاهيم أن الصراع العربي - الإسرائيلي ليس له وجود ، وليس مسئولاً بأي درجة من الدرجات عن شيعوع الأزمات والصراعات

وعدم الاستقرار في الإقليم التي تعود ، وفق المفهوم الإسرائيلي، إما لإيران وأذرعها الإرهابية كما كانت ومازالت تزعم واشنطن وتل أبيب ، وإما لشيوع ما أسموه بـ «الدولة العربية الفاشلة» التي حملوها مسئولية «تفريخ الإرهاب» الذي هاجم واشنطن ونيويورك (١١ سبتمبر ٢٠٠١) ، والذي أشاع عدم الاستقرار الإقليمي. وبناء عليه، فإن إسرائيل وقضية فلسطين ليسا سبباً لشيوع الصراع وعدم الاستقرار الإقليمي.

- ثالث هذه المفاهيم أن السلام الإقليمي يجب أن يقوم على أساس مبدأ «السلام مقابل السلام» وليس مبدأ «السلام مقابل الأرض» كما يريد العرب ، وأن إسرائيل لن تدفع أي ثمن للعرب مقابل انخراطهم في السلام معها ، وأنه لا وجود لدولة فلسطينية ولا قبول بـ «حل الدولتين» وأن «قانون القومية» الإسرائيلي هو الذي يحكم تنظيم العلاقة بين إسرائيل والفلسطينيين على قاعدة أن «كل الأرض للشعب اليهودي وحده» وأن الفلسطينيين ليس أمامهم إلا الخضوع لـ «التهجير القسري» وتحول من سيتبقى منهم إلى أقلية «معدومة الحقوق السياسية».

أسقط «طوفان الأقصى» وتكشّرت «سيوف إسرائيل الحديدية» أمام صلابة صمود الشعب الفلسطيني أمام «حرب الإبادة الجماعية» كل هذه المفاهيم .

- أول ما سوف يتساقط هو تماسك كيان الاحتلال الإسرائيلي «بعد أن تسكت المدافع» ويبدأ الحساب العسير لكل من هو مسئول عن «النكسة التي أصابت هذا الكيان». تفكك التماسك السياسي سيقود إلى تفكك التماسك الاجتماعي ثم الثقافي و«تهدوي» الصورة الذهنية» التي عملت إسرائيل بكل أجهزتها، مدعومة بمؤسسات الفكر ومراكز البحث الاستراتيجية الغربية من أجل ترسيخها باعتباره «واحة للاستقرار والتقدم والديمقراطية» من ناحية ، وأنها من ناحية أخرى امتداد للحضارة الغربية. ما قامت به إسرائيل من «حرب إجرامية» بكل المعاني أساءت كما لم يسئ أحد من قبل للحضارة الغربية التي بدت في أسوأ صورها العنصرية

والإجرامية أمام أشلاء الأطفال والنساء والشيوخ التي أخذت تتناثر في شوارع وضواحي غزة بسبب القصف الإسرائيلي

- ثاني ما سوف يتساقط هو مفهوم إسرائيل باعتبارها «القوة الإقليمية العظمى غير القابلة للهزيمة، والقادرة على فرض السيطرة والهيمنة الإقليمية، وحماية منظومة الأمن الإقليمي». انكسار وهزيمة إسرائيل عسكرياً كشفت أمرين: الأول زيف وهشاشة القوة الإسرائيلية التي لا تقهر. الثاني، أن المصدر الأساسي لأي نوع من أنواع القوة هو «الولايات المتحدة». رد الفعل الأمريكي السريع جداً على «طوفان الأقصى» وإعلان الرئيس الأمريكي أن «إسرائيل لا تهزم» كشف أن إسرائيل «مجرد واجهة أمريكية».

- ثالث ما سوف يسقط هو الدور الأمريكي كدور مركزي في إدارة إقليم الشرق الأوسط والتحكم في تفاعلاته. وسوف يبرز التحالف الجديد أو المحور الجديد الثلاثي: الصين - روسيا - إيران، كمحور مركزي في تفاعلات الشرق الأوسط. وأمام هذا السقوط سيحصل صعود جديد لأطراف أخرى في الصراع :

-الصعود الأول هو عودة مركزية القضية الفلسطينية ليس فقط عربياً وإقليمياً بل وعالمياً. فقد تأكد أن القضية الفلسطينية «قضية غير قابلة للتصفية» وأنه لا استقرار ولا سلام في الشرق الأوسط وربما في العالم دون الحل العادل للقضية الفلسطينية. ستعود مركزية القضية وسيصعد معها «خيار المقاومة» باعتباره الحل الاستراتيجي لاستعادة الحقوق .

-وسيصعد الدور الإقليمي لمصر مجدداً. فقد أثبتت تفاعلات الأزمة عسكرياً وسياسياً الدور المصري المحوري، وهذه عودة لن تعود مجدداً للوراء .

-وسوف يزداد الوعي والحاجة بضرورة بلورة تفاهمات إقليمية للتأسيس لنظام إقليمي جديد بين العرب وتركيا وإيران ودعم صيني - روسي ، في مواجهة المحور الأمريكي - الإسرائيلي الذاهب إلى «أفول» والذي أعطاه تتيها هو اسم «الشرق الأوسط الجديد» معاملة التي أرادها ... سقوط وصعود ليس له مثل تاريخي في تحول ليس له مثل سببه «طوفان الأقصى».

في هذا الملف نسعى إلى استقراء مستقبل ما سيحدث من تحولات وتطورات على المستويات الفلسطينية والإسرائيلية والعربية والإقليمية والدولية في محاولة لفهم تفاعلات مرحلة الصراع الراهنة الدائرة على أرض غزة وانعكاساتها المستقبلية ومعرفة إجابة لسؤال: ماذا بعد أن تسكت الحرب في غزة؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

ندرك تماماً أن الحرب مازالت مشتعلة وأن جهود احتواء الآثار الإيجابية التي أحدثتها «طوفان الأقصى» على أشدها ولذلك نحن نسعى إلى فهم ما يحدث لمعرفة ماذا سيحدث؟

شرفنا في أعداد هذا الملف ثلة من الأساتذة الإجلاء: الأستاذ الدكتور طارق فهمي، أستاذ العلوم السياسية - رئيس وحدة الدراسات الإسرائيلية والفلسطينية بالمركز القومي لدراسات الشرق الأوسط ، والأستاذ هاني المصري مدير المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية - «مسارات»، والأستاذ الدكتور معتز سلامة الخبير بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية والأستاذ الدكتور أحمد قنديل رئيس وحدة الدراسات الدولية وبرنامج الطاقة بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ، والأستاذة الدكتورة هند فؤاد السيد أستاذ علم الاجتماع المساعد بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، والباحثين دينا البرديني وأسماء عبد الفتاح بالهيئة العامة للاستعلامات .

ففي قراءته لـ «المشهد الإسرائيلي بعد حرب غزة»، سعى الدكتور طارق فهمي إلى الإجابة على السؤال المحوري: ما هي الخيارات والبدائل التي تملكها إسرائيل للتعامل مع قطاع غزة بعيداً عن المزايدات الإعلامية؟ أخذاً في الاعتبار أن الأزمة تمر بمرحلة انتقالية صعبة، وترتبط بالفعل بالترتيبات الأمنية والاستراتيجية الجارية التخطيط والتنفيذ لها في الفترة الراهنة، أخذاً في الاعتبار احتمالات التغيير داخل الحكومة الإسرائيلية .

أما الأستاذ هاني المصري فقد كتب عن المشهد الفلسطيني المتوقع بعد

توقف الحرب تحت عنوان «مسارات التسوية بعد الحرب الإسرائيلية على غزة» مؤكداً على أن العامل الحاسم الذي سيؤثر على هذه المسارات / السيناريوهات هي نتيجة الحرب ، فهناك فرق إذا انتصرت إسرائيل انتصاراً حاسماً، أو إذا انتصرت المقاومة انتصاراً حاسماً، أو كانت نهاية الحرب لا غالب ولا مغلوب ، حيث يستطيع في هذه الحالة كل طرف إدعاء الانتصار . وعلى ضوء هذه الاعتبارات حدد الأستاذ هاني المصري ثلاثة سيناريوهات ؛ الأول: تحويل السلطة الفلسطينية من «متعاونة» مع الاحتلال إلى سلطة «عميلة»، أما السيناريو الثاني فهو: إحياء مسار التسوية، والسيناريو الثالث: إنهاء الاحتلال وتجسيد استقلال فلسطين. ثم تحدث بعد ذلك عن العوامل التي تدفع نحو إنهاء الاحتلال وتجسيد استقلال دولة فلسطين، والعوامل التي تحول دون إنهاء الاحتلال وانجاز الاستقلال .

أما الدكتور معتز سلامة فقد كتب عن «تحولات النظام العربي والإقليمي بعد الحرب على غزة» محاولاً الإجابة عن السؤال: ما هي اتجاهات التحول في النظام العربي؟ وما هي فرص قيام نظام إقليمي جديد بعد نهاية الحرب؟ وما إذا كانت ملامح النظام السابقة على الحرب ستظل على حالها مع تغيرات طفيفة؟ مشيراً إلى أن هجوم «طوفان الأقصى» أدى إلى انكشاف حقيقتين: انكشاف حجم القوة الإسرائيلية وانكشاف محورية الدور الأمريكي في الصراع.

وكتب الدكتور أحمد قنديل عن «المشهد الدولي بعد حرب غزة: أنماط التفاعلات المستقبلية الدولية الكبرى في العالم العربي». وفي بحثه عن أنماط التفاعلات تلك ركز على دراسة المشهد الدولي قبل حرب غزة، والمشهد الدولي أثناء حرب غزة، وانتقل بعدها إلى استقراء المشهد الدولي بعد حرب غزة .

وتناول الدكتور محمد عطا الله وضع غزة في القانون الدولي الإنساني مقارنة بين وضعها قبل اتفاقية أوسلو وبعدها، والتزام المجتمع الدولي

بتحسين الأوضاع في غزة في ظل إعاقه إسرائيل لعمل منظمات الإغاثة الدولية.

أما الدكتورة هند فؤاد السيد فقد كتبت عن «الآثار الاجتماعية للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة» مشيرة إلى العجز الذي أحدثه هجوم «طوفان الأقصى» في مسألة تأمين وحماية المواطن في كيان الاحتلال الإسرائيلي وإحراج الحكومة الإسرائيلية أمام مواطنيها وأمام العالم، وما عمدت إليه حكومة الاحتلال من تعميق وترسيخ فكرة «عمومية المسؤولية» على كامل سكان قطاع غزة، وبالتالي التوجه نحو تجريد أهالي القطاع من حقوقهم الإنسانية بتفصيلها المختلفة، وعدم الفصل بين المدنيين والعناصر القتالية في كئائب القسام. وفي سبيل الإجابة على سؤال ما هي الآثار الاجتماعية المترتبة على الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة تحدثت أولاً عن الأضرار التي لحقت بالحياة الاجتماعية لقطاع غزة متضمنة الأضرار التي لحقت بالأمن الإنساني، والأضرار التي لحقت بقطاع الصحة، وبقطاع الصرف الصحي والمياه، والتي لحقت بالأمن الغذائي والمساعدات، والتي لحقت بقطاع التعليم. وبعدها انتقلت إلى دراسة الأضرار التي أصابت الحياة اليومية. وفي ختام الدراسة أكدت على أن القراءة السوسولوجية للآثار الاجتماعية للحرب على قطاع غزة تبين أن العديد من الأضرار التي لحقت بالحياة الاجتماعية واليومية لسكان قطاع غزة أدت إلى تدمير شامل للحياة والأمن الإنساني.

وأخيراً كتبت الباحثة دينا البرديني عن «موقف كندا من الأحداث في غزة: الدوافع والتطورات والنتائج».

في ثلاثة مباحث؛ الأول تحت عنوان: «كندا والقضية الفلسطينية: التطور التاريخي» والثاني، الموقف الكندي من الأحداث في غزة، والثالث عن أسباب ودوافع الموقف الكندي من الأحداث في غزة مركزة على ثلاثة أمور:



السياسة التقليدية لكندا تجاه قضية الشرق الأوسط في إطار حلف شمال الأطلسي (الناتو) ، وسياسة الحزب الحاكم ، وتأثير الجالية اليهودية الكندية على الموقف الكندي الرسمي .
نأمل أن تقدم هذه الدراسات والأوراق البحثية رؤية متكاملة لما سوف يترتب على «طوفان الأقصى» و«الحرب العدوانية على قطاع غزة من نتائج» في ظل حالة «عدم اليقين» الراهنة، بخصوص الآفاق المحتملة لـ :
متى ستتوقف الحرب وضمن أي سياقات .